العام الثالث: ما زالت في الأحلام بقية من طموح

منار زيد

تنبأ الجميع ببهتان إصراري بادئ ذي بدء، وانحسار موجة العنفوان الشاب الصارخ لتغيير جذري له مفعول العقار المعجزة، تنبأت أنا بانكسار احتمالات استشراء الخمول والاتكالية بين أهدافي الجديدة، وبأن موسمي سيأتي محملاً بالرطب الندي الممتلئ مع اقتراب موعد الحصاد. عام ثالث يمر، وأنا أنا، وهم هم.

تجارب غريبة، مفرحة، مفجعة، صادقة، واعكة، مبشرة، منذرة، فوضوية، أنيقة، تماماً كتجارب أي إنسان احتك مع قرينه الآخر.

تبدأ السنة الأولى فوضوية في الأجندة والمشاريع الخجولة المترددة، تلاحقها النصائح العقابية الوقائية من الزملاء المتخمين بالتجربة بأن: «املكي صفك واقضي على الصفوف الخلفية معقل الشغب والفساد. استخدمي الأوتار الصوتية المرتفعة لإحداث صمم مؤقت، ومن ثم افصلي العينين من محجريهما لضمان تلون العين بالأحمر والتركيز على هدف معين لشل خطوط الدفاع الأمامية، وإثبات السلطوية المطلقة». أدخل غرفة الصف وأنا نصف غائبة عن الوعي، ونصفي الآخر متمسك بمبادئ تعاليمي الجديدة، أصطدم بواقع الأفواه المشدوهة عن آخرها، لغتها الوحيدة كانت التعابير البعيدة للوزتين، المستنكرة لما أقول، والمستهجنة لتمتماتي الإفرنجية الدخيلة.

صادقتهن، أحببتهن، تجادلنا، تحدينا، فشلنا في أماكن، ونجحنا في أخرى. وتمضي الأيام حذرة صامتة حتى موعد الاختبار الأول، لأدخل في الإغماءة الأولى. أبكي وأندب حظي: إجابات عقيمة، أنصاف حلول، نسب نجاح تزحف لتصل النسبة الخمسينية.

تشحنني النتيجة وأدخل مولولة مستهجنة، فأُرشق بالرد السريع: «معلمتي أسئلتك صعبة ومش من الكتاب»، «معلمتي ما بنفهم عليكي بتحكي إنجليزي كل الوقت». حينها، تعلن النظريات التعليمية البائسة انهيارها لتضرب بعرض الحائط وطول البال.

لحسن حظي، في ذلك الوقت، كنت قد بدأت بالتعمق في دورات خاصة للتعليم من خلال توظيف القصة والدراما والرسوم والمشروع، وآمنت حينها أن الحصاد يأتي متأخراً بعض الشيء، وليس بالضرورة أن تكون اللغة أكاديمية، وهو ما اتضح لاحقاً بطريقة انصراف طالباتي لتحليل الأشياء، وبتخليهن عما هو مسلم به، إلى «ماذا لو لم يكن هكذا؟».

حينها، انتابتني لحظات نشوة بانتصار معتق طال انتظاره، لم يحمل بشائر في البداية، ولكنه حمل التغيير معه في بداية أخرى جديدة، لم أكن أنا جزءاً منها، بل كنت جزءاً فخوراً يقف بين الحضور، كنت حاضرة في الكلام والنقاش. كنت أكرم في الساعة آلاف الثواني، حينما ينخلع عنك القلب ويركض مقبلاً صغيراتك الواعدات ناثراً البركات والأماني، حينها فقط، ستشعرون بلذة ما بعدها لذة، ستُمحى آثار لكلام جارح غير عابئ بما أنت عليه، ستُنسى لحظات الفراغ القاتل والصمت الحالك الذي يحيط الحصة بالجمود والموت، ستُنسى محاولات للانشغال عن حصتك برسائل تنسل من تحت المقاعد، وتُنسى النظرات الفارغة من كل شيء إلا الفراغ، ستَنسى

فشلك المرير ومنغصاتك شبه اليومية، ستنسى كل ما يعانيه أي معلم متسلح بالأمانة والإخلاص والرسالة، ستنسى أنك معلم وستشعر بالأمومة وقتها. مع كل نهاية، كانت تسجيلات الذاكرة لدي تتسمر عند اللحظات الفرحة، متناسية أيامي التي لعنت فيها المهنة ومن أسسها، وكرهي فيها لطالباتي ووقاحتهن، وجرأة جيل يعاني فراغاً مطلقاً إلا من الترهات. صدقني ستنسى ويبقى الأمل بأن ما زرعته سيثمر يوماً حتى لو بعد حين. لا تلقن، بل ارسم لهم البداية وساعدهم على النهوض بعد كل عثرة. زين لهم تجاربهم السيئة واجعلها تذكاراً جميلاً لتفوق قريب. كن بئراً واجعلهم ينهلون منك. لا تكن إلهاً، وكن إنساناً خطاءً أخطأ فتعلم فنجح وارتقى. كن واضحاً وتجنب الالتفاف. علمهم الحياة ولا تجلد عقولهم الغضة بمنهاج عقيم. كن صديقاً، كن صبوراً، كن لحوحاً أحياناً وطالب بالقليل أحياناً أخرى.

كن أنت، ولا تكن تقليديّاً مملاً ومتوقعاً في أحيان كثيرة، لم أقل إنها مهمة سهلة، ولكنها تدريب يومي قاس قابل للاكتساب والإتقان، لا أعدك بنتائج مبهرة، ولكن أعدك بنماذج واعدة، فأول قاعدة تعلمتها ألا أقسو علي أو عليهن، ولا أحمل نفسي عبء الآمال والتوقعات الكبيرة، بل أجعل المنطق حدّاً فاصلاً ودواءً مخففاً لصدمات آتية.

اشعر بقدسية ما أنت عليه، وآمن بملائكيتهم. ازرع، وليس بالضرورة أنك ستحصد، بل ستغير وتؤثر، وستكون جائزتك العظيمة أنك ستسهم بميلاد جيل لا يحمل وزر المبادئ الجاهلة المعدة مسبقاً، بل ستخلق جيلاً مفكراً وواعياً وناقداً.

«A teacher affects eternity; he can never tell, where his influence stops", Henry Brooks Adams.[1]

مدرسة أبو علي إياد الثانوية للبنات

الهوامش:

[1] يمكن ترجمة المعنى: «بما أنه لا يمكن معرفة أين يتوقف تأثير المعلم، فإنه يؤثر في اللانهائي (الأبدي)». ترجمة المحرر.

من ورشة عمل حول العلوم والاستقصاء.